شرمولا

مجلة أدبية ثقافية فصلية العدد ١٥ صيف ٢٠٢٢

التأليف الأدبي
في شمال وشرق سوريا

محتويات القسم العربي

- **الافتتاحية**
  - التأليف الأدبي في شمال وشرق سوريا.. (هيئة التحرير) ٥
- **ملف العدد**
  - حركة التأليف في شمال وشرق سوريا.. (رشيد عباس) ٨
  - ببلوغرافيا الكتب العربية في شمال وشرق سوريا ٢٠١٢ – ٢٠٢٢.. (دلشاد مراد) ١١
  - دار نفرتيتي للنشر.. مشروع ثقافي وجسر للتواصل بين المصريين وشعوب شمال وشرق سوريا.. (السيد عبد الفتاح) ٣٤
- **حوار العدد**
  - مع الناطقة باسم ديوان الأدب في شمال وشرق سوريا «ناريمان عفدكي».. (دلشاد مراد) ٤٠
- **كتب (قراءات وإصدارات)**
  - أثر التاريخ ومقولاته في الخطاب الروائي في رواية «احتضار عند حافّة الذاكرة».. (فراس حج محمد) ٤٦
  - صورة (الآخر) في مجموعة (حلويات) للشاعر العراقي عمر السراي.. (محمد شاكر الخطاط) ٥١
  - إصدارات الكتب.. (هيئة التحرير) ٥٤
- **ترجمات**
  - تاريخ الطباعة الكردية.. (أوجو مهاباد، الترجمة عن الكردية: وليد رمزي بكر) ٦٤

أثر التاريخ ومقولاته في الخطاب الروائي في رواية «احتضار عند حافّة الذاكرة»

فراس حج محمد*

قدّم الكاتب نصّاً روائياً ذا أهميتين: أهمية توثيقية معتمدة على الرواية الشفوية، وأهمية تاريخية تصلح لأن تكون خطوة تأسيسية لمشروع روائي يساير التاريخ، ويبحث فيه بالطريقة ذاتها، ليلتحم الفن الروائي مع الرواية الشفوية..

تتميز رواية الكاتب أحمد الحرباوي[١] «احتضار عند حافة الذاكرة»[٢] باعتمادها على «الرواية الشفوية» كمرجع معرفي أساسي في إعطاء الحدث الروائي شرعية سردية تعود إلى فترة فلسطين العثمانية، لكنها لم تكن لتعالج جميع تلك الفترة المختلف عليها وعلى تقييمها لدى الكتاب والمؤرخين والمفكرين

* شاعر وناقد من فلسطين، مواليد نابلس ١٩٧٣، حاصل على درجة الماجستير في الأدب الفلسطيني الحديث/ جامعة النجاح الوطنية. عمل معلماً ومشرفاً تربوياً ومحاضراً في جامعة القدس المفتوحة، ومحرراً لغوياً في دوريات صادرة عن وزارة التربية والتعليم في فلسطين. ينشر في الدوريات الفلسطينية والعربية، وله أكثر من عشرون مؤلفاً في الشعر والنقد الأدبي والمقالة.

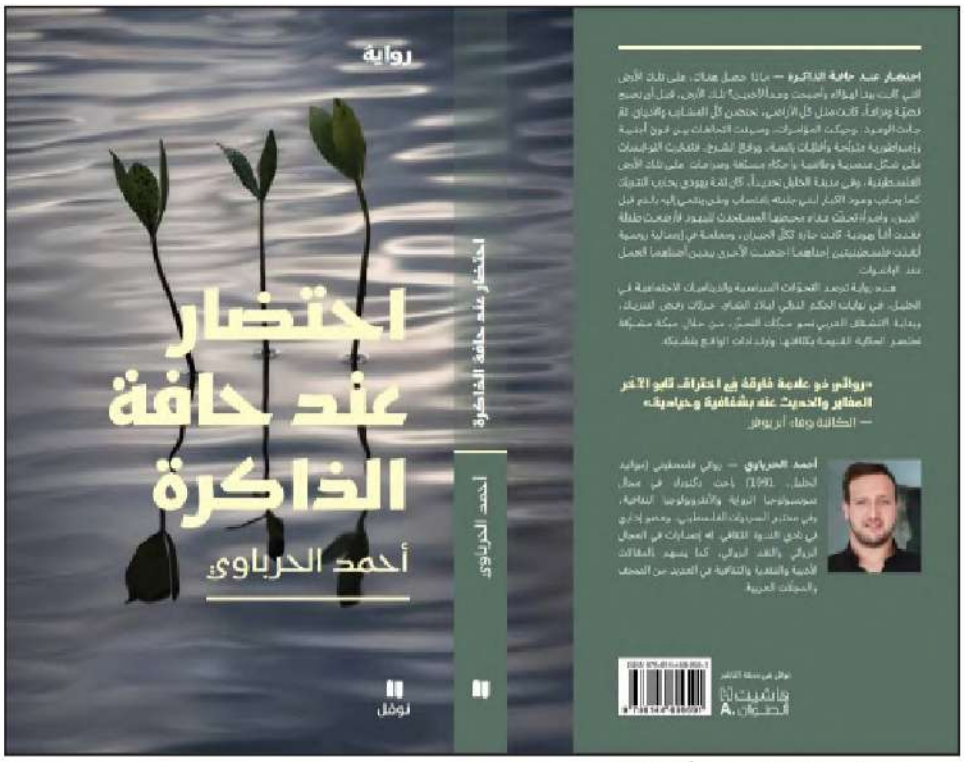

■ غلاف رواية «احتضار عند حافّة الذاكرة»

والسياسيين، إذ توصف عادة هذه الفترة بأنها احتلال عثماني، على الرغم من الالتباس الواقع بهذا التوصيف.

تتكئ الرواية على زمن روائي، يتناول الأحداث من عام ١٩١٤ كما هو في الفصل الأول، لينتهي عام ١٩٥٣ كما هو في الفصل الثالث عشر «الفصل الأخير»، لكن تتبع أحداث الرواية في الفصول الاثني عشر الأولى يشير إلى تمركز أحداث الرواية بين عامي ١٩١٤ و١٩١٥، العامان الأولان لنشوب الحرب العالمية الأولى، وانحياز الدولة العثمانية إلى دول المحور في مواجهة دول الحلفاء، وتتمركز الرواية حول الوضع الداخلي في فلسطين، اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، وأثر الحرب وسياسية العثمانيين في تعاملهم مع أهل فلسطين.

تظل الأحداث تراوح مكانها في تبئير الحالة السياسية والاقتصادية الفلسطينية في السنة الأولى للحرب، بدءاً من شتاء عام ١٩١٤، وحتى آب ١٩١٤ في الفصل التاسع، (ص ٩٥)، ثم يندفع الزمن إلى تموز ١٩١٥ في الفصل العاشر، ثم آب ١٩١٥ في الفصل الثاني عشر، ليقفز السرد ثمانية وثلاثين عاماً في الفصل الأخير، ليصل إلى عام ١٩٥٣.

هذا المخطط العام لزمن الأحداث الروائية ارتبط بالخطاب الروائي الذي أعلنت عنه الأحداث، بصيغتيه؛ الخطاب المعلن، والخطاب المضمر، إذ استند خطاب الرواية المعلن على أمرين مهمين في أداء وظيفته السردية، الأول الأحداث التاريخية لهذه الفترة، والثاني الروايات الشفوية التي جاءت داعمة للحدث الروائي، وخاصة في الجانب الاجتماعي، هذان الأمران انعدم تأثيرهما السردي في بنية الرواية في الفصل الثالث عشر المعنون بـ «الفصل الأخير»، إذ في هذا الفصل يصبح الخطاب المضمر للرواية أكثر بروزاً، ليكون نوعاً من

إجابة على سؤال: لماذا تمركزت الرواية حول هذه الفترة التاريخية، وعلى هذه الأحداث وبهذه الكيفية التي مرت في الاثني عشر فصلا السابقة؟

ظهرت فلسطين في هذه الفترة من عمر التاريخ وحكم العثمانيين، ومن خلال بيئة الخليل والقدس أنها تعاني من بلاء شديد، متمثلاً في التعسف العثماني، والتردي الاقتصادي، والأحوال الجوية السيئة، وحركات التمرد العربية ضد الدولة العثمانية، بحيث صورت الرواية فلسطين أنها كانت قطعة من الظلام والقهر لا شيء يمكن أن يكون إيجابياً سوى تصويرها لمجموعة المحكومين بالإعدام على أنهم ثوار، وبدا التعاطف السردي الذي يظهر تعاطف الكاتب مع هؤلاء المسجونين.

هذا الخطاب المعلن لا يقول شيئا مهما لولا اقترانه بالجانب الاجتماعي السردي المعتمد على الرواية الشفوية المأخوذة من مجموعة من النسوة أشار إليهن الكاتب في بداية روايته. في هذا الجانب يلتحم الجانب الاجتماعي مع الجانب التاريخي ليتجه نحو توثيق كثير من مفردات الحياة الاجتماعية الفلسطينية في تلك الفترة، ويظهر من خلال تلك المرويات الشفوية التي دعمت البنية الروائية شخصية الحرباوي البحثية، فكان مهتما على نحو واضح بالبعد التوثيقي للعادات والتقاليد الفلسطينية، ومجموعة من أسماء الأشياء والطقوس الاجتماعية، وتذهب به شخصيته البحثية نحو تفسير كثير من المفردات والمصطلحات في الهامش، وبلغ به ذلك الأمر مبلغا كبيرا إلى درجة أنه أحيانا كان يفسر كلمات لا أظن أنها بحاجة إلى تفسير.

هذا الهاجس البحثي يدعم مشروع المؤلف الأساسي القائم على البحث والتنقيب على الرواية الشفوية في منطقة الخليل، وله في هذا الجانب إسهامات سابقة، تأتي هذه الرواية لتؤكد هذا الجانب في شخصية المؤلف.

واتساقا مع هذا الغرض الذي قد يخدم أهدافا أنثروبولوجية عند تحليل المتن الروائي بناء على مفردات البحث الأنثروبولوجي، تبدو اللغة عاملا مساعدا في هذا الجانب البحثي، إذ تشير لغة الشخصيات التي نطقت باللغة العامية وعلى طبيعتها دون أن يلجأ السارد العليم إلى أسلبتها- تشير إلى تعزيز البعد الاجتماعي الواقعي للسرد وللغة معاً، إذ زادت اللغة من ارتفاع منسوب واقعية السرد وانتسابه إلى مرجعياته الحقيقية خارج نطاق البنية السردية لأنه- كما صرح في البداية- قائلا: «وُلدت فكرة الرواية خلال بحث عن أغاني المدينة التراثية في ذاكرة سيّداتها. دلالات الأغنيات كشفت عن بنية تحوّلات رهيبة في المدينة في تلك الحقبة، خلقت الدافع لكتابة هذا العمل، التي استمرّت، بحثًا وكتابة، لعامين». (ص ٧).

هذه هي العناصر البنيوية التي شكلت مجموع الخطاب المعلن في هذه الرواية، لكن ثمة خطاب مضمر لا بد من أن يلتفت إليه الدارسون ويتنبه له القارئ عندما يقرأ هذا العمل، وأي عمل، فالرواية لم تعد تكتب للمتعة والتسلية، إنما هناك خطاب سياسي وفكري وانحياز أيديولوجي لدى كاتبها، ولولا هذا الجانب لم يكن للروايات أو الأعمال الأدبية أي أثر أو قيمة، أو- على أقل تقدير- لكان أثر تلك الأعمال باهتاً وغير مؤثر.

يصح القول خارج الرواية: إن التاريخ ما هو إلا أحداث ماتت شخصياتها، فلم يعد له وجود؛ لأن «الفاعل» فيه قد انتهى وجوده، أما روائيا فإن التاريخ لم يمت، وأحداثه لم تتوقف عن الإخبار وإعطاء الدلالات، وإن ماتت شخصياته يظل ذا قدرة على التأثير والإشعاع. حاولت الرواية أن تفعل ذلك في اعتمادها على المفاعيل السردية السابقة؛ إذ اختارت أحداثا مؤثرة ومشاهد سردية فيها كم لا بأس به من الانفعال، كمشاهد تزاحم الناس على الماء للسقيا عام الحرب، وكاستقبال المحكومين بالإعدام- ومنهم إيلي-

في محطة القطار، ومشهد موت ابن المختار وارتدادات هذا المشهد والموت المفجع لزوجة المختار كذلك، ومعاناة لمياء مع ليلى الطفلة بعد مفارقتها للغجر. وغيرها الكثير، هذه المفاعيل السردية متوترة العاطفة ساهمت في رسوخ الخطاب المضمر في عقل القارئ الذي سيعلن عنه أو يكاد في «الفصل الأخير».

ماذا حدث في الفصل الأخير؟ إن العامين تقريبا اللذين هما زمن الحدث الروائي في الرواية، واستهلكا اثني عشر فصلا، جاءا ليبرزا الخطاب المضمر للرواية التي هو لب لباب الرواية والهدف الأبعد من وراء نبش التاريخ وتسجيل الروايات الشفوية. هذا الفصل، فصل ختامي، غير متتابع في الزمن الروائي، يقف عند عام ١٩٥٣، ويكون فيه هذا السرد:

«تحدّث الشبّان عن ضرورة تحرير فلسطين وتوحيد الأمّة من خلال إعادة إحياء دولة إسلامية على غرار العثمانية التي سقطت قبل عقود، تشنّجت لمياء من كلامهم، تسمّرت مكانها وحدّقت في الفراغ، كانت تصغي إليهم باهتمام شديد، وفجأة احمرّت عيناها، وتيبّست ملامحها، وضربت بقبضة يدها على الكرسيّ الخشبي.

كان هؤلاء الشباب اليافعون يتحدّثون وذاكرتها تنهار، شاهدت أباها عند بركة السلطان وهو يودّع الناس في موكب الترحيل إلى حرب لم يعد منها، وأمّها التي سيقت كخادمة عند الأفندي وماتت دون أن تُدفن في المكان الذي طلبته، إيلي الذي ضحك قبل موته دون أن يودّع ابنته الوحيدة، ودون أن يعرف أنّ زوجته ماتت ودُفنت في مكان لا يعرفه أحد، الجوع والقتل والدم المسفوك في الساحات، والأطفال فوق أكوام القمامة، والنساء اللواتي بكين بلا توقف، وشفتا عصمت أفندي وهما تسحبان من جلدها إحساسها بالحياة، خفقان قلبها الأبكم، وبكاؤها الطويل في الطرقات والجبال، كلّ شيء عبرها مثل موجة صقيع باردة خدّرت مفاصلها». (ص١٢٩)

هذا الاقتباس الطويل يبين انحياز الكاتب ضد الدولة العثمانية، بناء على ما استعاده مرة أخرى من تجربة لمياء القاسية في فترة الحرب، استعادة تلخص الرواية بفصولها السابقة. هذا الفصل يشبه الخاتمة في البحوث الأكاديمية، ففيه نتيجة البحث الذي ينحو فيه الكاتب نحو تعميم التجربة العثمانية في فترة الحرب العالمية الأولى واستيلاء حزب الاتحاد والترقي على الدولة العثمانية وسياسة التتريك العثمانية، وتهميش العنصر العربي، ويرى في هذه الصورة القاتمة سياسيا واقتصاديا ومآلات ذلك على الوضع الاجتماعي صورة للدولة العثمانية كلها، ليرفض هذه الدولة جملة وتفصيلا، متماهيا مع كثير من المفكرين والكتاب الذين لا يرون الدولة العثمانية سوى دولة قهر وجهل وتخلف على طول فترة حكمها للعرب، هذه صورة رائجة لدى دارسي التاريخ والسياسيين فيرفضون العثمانيين وكل شيء يمت إليهم بصلة.

هذا الرفض أيضا شمل معه رفض منطق وجود الدولة الإسلامية، نتيجة التعميم البحثي، لأن معنى ذلك أن هذه الدولة التي يتحاور حول ضرورة إيجادها هؤلاء الشبّان في الحديقة سيعيد للناس «دولة عثمانية» بمواصفات الدولة التي كانت قائمة في فترة عامي السرد الروائي (١٩١٤ و١٩١٥)، وهما عامان كافيان من وجهة نظر الروائي الباحث ليكونا دليلاً على العثمانيين وسياساتهم ليس في فلسطين فقط، بل وفي المنطقة العربية قاطبة.

لم يقف هذا الرفض عند حدود الفكرة مطلقة دون تحديد، بل ثمة جانب آخر من الخطاب المضمر في المقتبس السابق، يقوم هذا الجانب على مهاجمة المتحاورين وهزيمتهم بمنطق التاريخ، وهؤلاء الشبان، وعام ١٩٥٣، ومكان الأحداث في مدينة تبليسي عاصمة جورجيا، إضافة إلى مادة الحوار «تحرير فلسطين

بإقامة الدولة الإسلامية»، كلها تشير إلى الرد على حزب التحرير الإسلامي، ووجهة نظره في كيفية تحرير فلسطين، فالحزب أقيم عام ١٩٥٣، ودعاته هم الشباب في الأعم الأغلب، وينشط في الدول الأجنبية، أو هكذا رائج عند من ينتقده أنه رائج في تلك الدول.

إن هذه المقاربة- إن صحت كما في التحليل والاستنتاج السابقين- لا تنبئ إلا عن مبدأ التلفيق التاريخي، فحزب التحرير عندما أنشئ في القدس عام ١٩٥٣ على يد الشيخ تقي الدين النبهاني، لم يكن له أتباع في الدول الأجنبية في ذلك الحين، ولعل الكاتب لم ينتبه إلى مثل هذه «السقطة» التاريخية، فالمتخيل السردي والرد على الأحزاب ومقولاتها هو من حق الكاتب ابتداء، لكن ليس من حقه إحداث بلبلة في أحداث التاريخ، ليتم الإسقاط الفكري على التاريخ، والتاريخ وأحداثه لا تسعفان الكاتب نهائيا.

ما يعزز هذا الاستنتاج أن البنية الروائية كما أعلن عنها منذ البداية تمتد إلى عامين، كما هو مثبت في الاقتباس السابق، ما يعني أيضا أن «الفصل الأخير» الذي لم يجعله مترابطا مع العدد الترتيبي الذي انتهى في «الفصل الثاني عشر»- خارج منطق التركيب البحثي- فصل مقحم على الرواية لتعزيز الخطاب المضمر، وتوجيه الرواية نحوه، لتتخذ بذلك الرواية صفة الرد على المناوئين، لكن بطريقة روائية، فأراد أن يسهب في الشرح في الفصول السابقة، ليقول في «الفصل الأخير» رأيه المؤسس على التاريخ. فكأنه يحاكي كذلك طريقة التحريريين في المناقشة والتحليل والإسهاب في عرض الحجج، ليثبت لهم أنه قادر على المناقشة وهو مجهز بما يلزمه من حقائق، استقاها من التاريخ وأحداثه.

وإمعانا في تسفيه الدعوة التحريرية فإن المرأة لمياء الهاربة من جحيم الدولة العثمانية إلى جنة الغرب، لا يستطيع أولئك الشبان محاورتها، ما يدل على أن الدعوة متهاوية ولا تستقيم، وأن الحزب هش الأفكار، ولا يصمد أمام النقاش المبني على الحقائق التاريخية، فأتباعه فتية، ما يعني أنهم عديمو الخبرة والعلم والمعرفة، فلا يعدّهم- ربما- الحرباوي من المفكرين أو المنظرين السياسيين المعتدّ بهم.

لعل في ذلك كله صورة دعائية قاتمة ضد «الإسلام السياسي» بمجمله، فلا يقف عند التحريريين، بل ربما شمل كل من أسس دعواه وأفكاره السياسية على أفكار الإسلام، وبذلك فمقولات الرواية الفكرية وخطابها الروائي بشقيه؛ المعلن والمضمر، ينحازان إلى تلك الأفكار السلبية المستقرة في أذهان فريق من المثقفين الرافضين لمثل هذا الاتجاه في الحياة السياسية والفكرية والحزبية العربية.

وبغض النظر عن هذا وذاك في تحليل الخطاب الروائي، فقد قدّم الكاتب أحمد الحرباوي نصّاً روائياً ذا أهميتين على أقل تقدير: أهمية توثيقية معتمدة على الرواية الشفوية، وأهمية تاريخية تصلح لأن تكون خطوة تأسيسية لمشروع روائي يساير التاريخ، ويبحث فيه بالطريقة ذاتها، ليلتحم الفن الروائي مع الرواية الشفوية خدمة للتاريخ وأهمية إضاءة بؤره المعتمة التي ستؤول إلى فهم مغاير للقضية الفلسطينية، لأن ثمة ما هو مسكوت عنه في مراحل هذه القضية، يتقصّد الحرباوي ألا يتناساه أو يهمله.

---

[١] ولد عام ١٩٩٢ في الخليل، روائي وباحث، حاصل على شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية وماجستير علم جريمة، ويدرس دكتوراه في علم الاجتماع في كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية بتونس. له عدة إصدارات سابقة.

[٢] صدرت الرواية عن دار نوفل في بيروت، ٢٠٢٢، وتقع في (١٣٦) صفحة من القطع المتوسط.

■ لوحة: وليد مراد

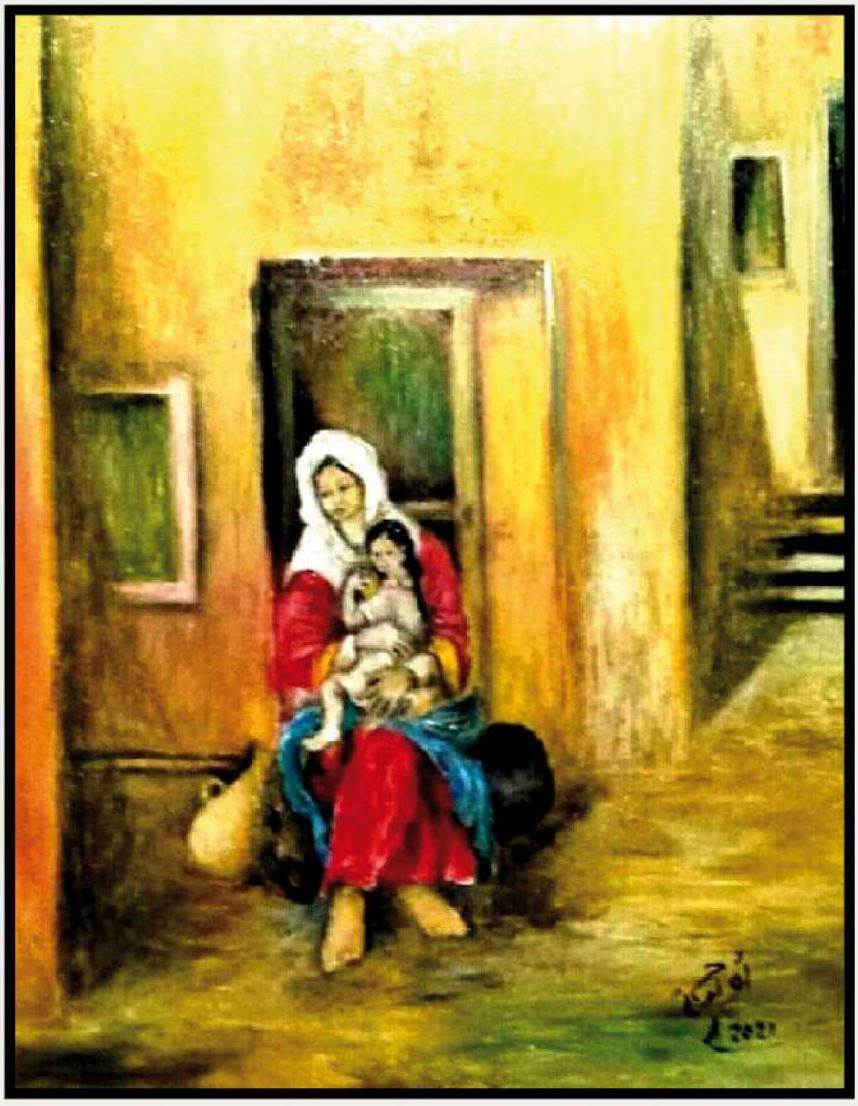

■ لوحة: عبد الله وجنبه (المغرب)